المحاضرة السابعة: عصر الخلافة الراشدة

لقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة بين السلطة الدينية باعتباره ناقلا للشرع عن ربه عز وجل وبين السلطة السياسية باعتباره رئيس الدولة والآمر بالأحكام على الناس، وعلى ضوء ذلك حاول ابن خلدون في تعريفه للخلافة الربط بين ما هو ديني وما هو سياسي فقال :"وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافّة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هم حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضارّ، والخلافة هي حمل الكافّة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلّها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة" ثم أعطى ابن خلدون تعريفا وجيزا مختصرا لمعنى الخلافة حين قال :"فهي في الحقيقة خلافا عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به".

أولا: مؤتمر السقيفة وظهور نظام الخلافة

واجه المسلمون بعد وفاة النبي الأكرم حالة من الفراغ السياسي الذي تمثّل في غياب القيادة، ونظرا لشعور الصحابة بأهمية القيادة السياسية قدموا مسألة اختيار رئيس الدولة الاسلامية على غيرها من الأمور بما فيها دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم،، وكرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة، وهو إحساس بأهمية الدولة التي تركها لهم رسول الله وضرورة الحفاظ عليها، ذلك أنها رمز الوحدة السياسية والدينية معا، ويمكن لتلك الدولة أن تزول في لحظة أو تنهار، حين يتخاذل المسلمون في تعيين من يقودها ويرأسها، وهو وعيٌ سياسي من قبل الصحابة وصلوا إليه بفضل تعاليم الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام الذي كان يعلمهم ذلك بقوله:" من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية" .

وعليه كان من الضروري أن يقوم المسلمون بحل هذه المشكلة بأنفسهم، وقد تمّ ذلك في اجتماع السقيفة، ويمكن تلخيص ما دار في هذا الاجتماع في ثلاثة آراء:

- **رأي الأنصار:** تولية سيدهم سعد بن عبادة
- **رأي المهاجرين:** حين رشحوا أبو بكر الصديق
- **الرأي الثالث:** رأي الحباب بن المنذر من الأنصار الذي قال:" منا أمير ومنكم أمير".

وقد استقرّ رأي المجتمعين في السقيفة بعد مناقشات لم تستغرق طويلا على مبايعة أبي بكر بالخلافة، بعد أن بايعه عمر وأبو عبيدة وتتابع الناس على بيعته، خاصة بعد أن ذكر عمر فضل أبي بكر وأنه :" أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين"

إن سقيفة بني ساعدة منبرٌ حرٌّ تحققت فيه الشورى بأوضح صورها، عندما أُدلي بالحجج، ومن لم يقدم رأيًا أو نصًّا فلا حجَّة له، وتدل الأحاديث التي دارت بين الصحابة عند بيعة أبي بكر وبعدها، على أنهم إنما بايعوه لأسبقيته في الإسلام، وفضله وسنّه، وتزكية رسول الله له عندما أمره باستخلافه في الصلاة، حتى أنه قال عندما رأى عمر بن الخطاب يصلى بالناس وفيهم أبو بكر :" يأبى الله ورسوله إلا أبا بكر لا ينبغي لأمتي أن يؤمّهم إمام وفيهم أبو بكر".

إن أهم ما نتج عن اجتماع السقيفة هو نظام الخلافة الذي تميّز به المسلمون عن غيرهم واختاروه نظاما لدولتهم، حيث اتجهت إرادة المجتمعين يومئذ إلى أن يكون نظام دولتهم هو طريق الاتباع الخالص للسياسة التي بدأها وأسس بنيانها الرسول الأكرم ، ومن ذلك كان اختيار أبي بكر، ومن ذلك أيضا كان ابتداع

تسمية "الخلافة" التي هي عند المسلمين نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا ورئاسة عامة في أمور الدين والدنيا.

ثانيا: تطور المجتمع الاسلامي في العهد الراشدي

ولد المجتمع الاسلامي مع مولد الدولة الاسلامية بعد هجرة الرسول الأكرم من مكة إلى المدينة، وكانت ولادته بين أحضان المجتمع العربي الذي كان مشكلا في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام بنظامه القبلي المعروف وعاداته وتقاليده المتباينة، ولم يلجأ الاسلام إلى إلغاء كل مقومات المجتمع العربي وإنما عالج الأوضاع الاجتماعية عند العرب بطريقة تدريجية بناءة، فأقرّ ما هو صالح منها وعدّل ما يتطلّب التعديل، وأبطل ما رآه فاسدا ويتعارض وروح الاسلام ومبادئه ومثله، وانطلق الاصلاح والتغيير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمد الاسلام في تنظيمه للمجتمع على تنظيم علاقة الفرد بربه وبأسرته وبمجتمعه، لأن صلاح الأسرة لا يكون إلا بصلاح الفرد، وصلاح المجتمع لا يكون إلا بصلاح الأسرة .

1-سمات المجتمع الاسلامي في عهد الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

- الحرص الشديد على التمسك بتعاليم الاسلام والبساطة
- الزهد والمساواة بين الناس وانعدام الفوارق بين الحاكم والمحكوم.
- تنظيم العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة من يهود ونصارى وفق الصحيفة
- العدالة والمؤاخاة والتكافل والتآزر خاصة على عهد الفاروق عمر

2- تغيّر المجتمع الاسلامي في عهد عثمان رضي الله عنه وبداية الفتنة

بدأ المجتمع الاسلامي في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان يختلف شيئا فشيئا عما كان عليه في عهد عمر رغم أن رضا العامة كان على عثمان أكثر مما كان على عمر لاتسامه باللين والرفق، فقد ملّ المجتمع حزم وشدة عمر بن الخطاب، وكان من أهم أسباب تغير وتبدل المجتمع، لين عثمان مع الناس حتى أطمعهم فيه، فكانوا يطالبونه بأشياء لم يكن بمقدورهم حتى الخوض فيها في عهد عمر، كعزل الولاة وتعيين أعوان الدولة.

ويقسم عديد المؤرخين عهد عثمان الممتد على اثني عشرة سنة إلى قسمين مدة كل منهما ست سنوات، الفترة الأولى هادئة ساكنة مرضية، والثانية مضطربة ومتوترة، سوف تحتدم إلى أن تفضي إلى مقتله.

ومن أسباب اضطراب الأمن على عهد علي:

- عوائد الفتح من غنائم وإقطاع وغير ذلك قد زادت من رفاهية المجتمع الاسلامي وترفه.
- ظهور عنصر جديد في المدينة وهم الأرقاء والموالي وأصبح لهم دور اجتماعي بل وسياسي مهم لدرجة أنهم كانوا السبب في مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- ترامي أطراف الدولة الاسلامية وصعوبة التحكم فيها
- ظهور الدور الخفي لأعداء الاسلام والمسلمين قصد إفساد الدين وإضعاف المسلمين، وقد تزعم هذا التيار عبد الله بن سبأ وأعوانه،

حاول عثمان رضي الله عنه معالجة الأزمة بحكمة وثبات وعزم وسداد، وسرعة مع الحيطة والأناة، والرفق في سياسة الأولياء والخصوم، غير أن لهيب الثورة سرعان ما

انتشر وانطلق من مصر والبصرة والكوفة واستغل الثائرون –الذين كانوا قلة– موسم الحج لإخفاء نواياهم وقدموا المدينة وأثاروا البلبلة وقتلوا عثمان رضي الله عنه .

3–عليّ رضي الله عنه يرث مجتمعا مفككا

بعد مقتل عثمان رضي الله عنه كان لابد من اختيار خلف له، فأتى المسلمون عليا في داره ومنهم كبار الصحابة فأقنعوه بالخلافة بعد رفض شديد لها من قبله وقد بايعه الناس وتتالت عليه البيعات من الأمصار عدا الشام التي كان عليها معاوية بن أبي سفيان الذي نصّب نفسه وليًّا على دم عثمان، فطالب عليّا بالقصاص من القتلة كشرط أساسي للبيعة، ولكن عليا رفض الشرط وأصرّ على البيعة دون شرط، وبعد البيعة يكون النظر في قضية القصاص، وعلى ذلك دار الصراع بين علي ومعاوية وأدى فيما بعد إلى موقعة صفين بينهما سنة 37هـ. وفي محاولة للصلح انطلقت من مكة تقودها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع طلحة والزبير بن العوام لم يفهم علي رضي الله عنه قصدها فوشى الواشون وخطط المنافقون حتى ادخلوا الطرفان في معركة الجمل سنة 36هـ .

- **مسألة التحكيم**

نشير إلى أنَّ أصحَّ الروايات في مسألة التحكيم ما ورد في صحيح البخاري من أنَّ الإمام عليًّا وافق على التحكيم الذي نادى به أهل الشام دون أيِّ ضغط من أحد، بل ورحَّب به قائلا: "نعم؛ أنا أوْلى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله"، فأنكر عليه القرَّاء ذلك وطالبوه بمواصلة قِتال أهل الشام، وحاول الصحابي سهل بن حنيف –رضي الله عنه– تذكير القرَّاء بمعارضة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ليتبيَّن بعد ذلك صحَّة ما ذهب إليه النبي ومدى قراءته الصحيحة للأحداث.

ولما رجع عليّ إلى الكوفة خرج عليه المعارضون للتحكيم، وعلى ذلك ظهرت فرقة المحكِّمة؛ وهم القرَّاء، التي انشقَّت عن علي بن أبي طالب–رضي الله عنه– عند إصراره على إنفاذ التحكيم من البداية فالمحكِّمة كانوا رافضين لوقف القتال والتحكيم من البداية، وتشير بعض روايات الإباضية –وحتى السنِّية منها– إلى أنَّ الأشعث بن قيس وجماعته هم من أجبروا الإمام عليًّا على التحكيم وليس المحكِّمة، وتشير المصادر التاريخية إلى أنَّ الإمام عليّا بعد أن حاجّ أهل حروراء وكانوا في عشرين ألفًا وعليهم شَبَثُ بن ربْعي فرجعوا، وذلك بعد بعثة ابن عباس –رضي الله عنه–، وقد بيَّن عليٌّ – رضي الله عنه– موقفه من المحكِّمة في قوله: "إن سكتوا غممناهم– أو قال تركناهم– وإن تكلَّموا حجَجْناهم، وإن خرجوا علينا قاتلناهم"، وذكر في موضع آخر قوله: "أما إنَّ لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا"

- **معركة النهروان وظهور المحكّمة والخوارج**

لما ظهر فساد بعض المحكّمة في الأرض قرّر الإمام عليّ مقاتلتهم، وكان على رأس المفسدين مسْعَر بن فَدَكي التميمي، الذي قتل وجماعتُه صاحب رسول الله عبد الله بن خبَّاب بن الأرت –رضي الله عنه– سنة 38هـ، حينها قرّر عليّ محاربتهم، فكانت موقعة النهروان بينه وبينهم سنة 38هـ/659م، وهكذا اضطرّ علي إلى حرب من كانوا يوما ما من معسكره وضمن جيشه، وقتل الكثير منهم في النهروان وكان أكثرهم من أهل الكوفة، واستغل معاوية ذلك في الانقضاض على الأطراف فسيطر على مصر وكل الشام والحجاز، ولم يأبه عليّ لتحركات معاوية إذ لم تعد السياسة شغله، فقد زهدها وملّت نفسه من الصراع، واهتم بأمور القضاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجلوس للناس في المساجد، حتى أتته منيته

من بعض الخوارج الذين بيّتوا قتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص في يوم واحد، فقتل عبد الرحمان بن ملجم الحميري علي في 17 رمضان 40هـ ، ونجا معاوية وعمرو من القتل.

وبعد موقعة النهروان بدأت انتفاضات الحرورية والتي كانت آخرها خروج أبي بلال مرداس (ت61هـ/670م) على عبيد الله بن زياد والي الأمويين على البصرة وافترق بعدها المحكِّمة إلى فرق عديدة، فخرج منهم الإباضية وهم الذين حافظوا على نهج المحكّمة، ومنهم أيضا الصفرية والأزارقة والنجدات، وكانوا متشدّدين مسرفين في قتل خصومهم، حتى أنهم كانوا يسمون الإباضية بالقعدة لكونهم قعدوا عن قتال المسلمين، غير أنَّ الذي يجمعهم ويشكِّل محور اتفاق بينهم هو تخطئة الإمام عليٍّ في وقفه القتال مع معاوية وكذا إنكارهم للتحكيم، ومن ثمَّ تخطئته في قتاله لأهل النهروان، كما يجمِعون على جواز الإمامة في غير قريش.